زخور راهب ومعلم اللغة العربية في مدينة باريس وذلك في يوم السبت الواقع في ١٤ من شهر تموز سنة ١٨٠٧

٣٩١ ﴿زنده﴾ اغوستينوس الحلبي كان في اواخر القرن الثامن عشر . لهُ في دير بزمّار تعريب لمواعظ احد الآباء الكبوشيين في مجلّد ضخم

٣٩٢ ﴿زوين﴾ يرجس الماروني المتوفّى في ٢٨ تموز ١٨٩٢ حرّر عدّة جرائد ونقل الى العربيّة كتباً دينيّة وادبيّة منها مصباح الهدى لمن اهتدى وكتاب رواشق الافكار لاوميروس وكتاب كنيسة الروم الشرقيّة بازاء المجمع الفاتيكاني وروايتي وردة وفريدة المغرب وردود على الدكتور ميخائيل مشاقة . ولهُ عند اسرته متفرّقات ادبية وتاريخية لم تُنشر بالطبع (الهُ بقية)

كشف الخفاء عن المحابس والحبساء

يقلم الاب لياوس داغر كاتب اسرار الرئاسة العامة اللبنانية

مقدمة

اني لمّا كنت آخذاً في نشر ما اتّصل اليَّ من اخبار الحبساء الذين اتخذوا السيرة الفسكية في محابس رهبانيتنا اللبنانية وما عرفتهُ من تاريخ هذه المحابس ومواقعها « مدحاً لآبائنا الذين خلفوا اسماً يخبر بمدحهم » (ابن سيراخ ص ١٤) وانتباراً بامر سيدي قدس الاب العام اثناطيوس التوري الجزيل التقوى الذي اوعز اليَّ بعد طبعي « منية القلوب في حبس حوب » ان اجمع ما كنت علّقتهُ على اوراقي عن الاب شربل الحبيس وهو حي . وتعميماً للفائدة واتماماً لرغبة الكثيرين من محبّي الاطلاع على اخبار السلف رأيت ان امهّد لذلك بذكر ما امكنني الوصول اليهِ من تاريخ المحابس والحبساء الذين كانوا في اغوار جبلنا المبارك ومشارفهِ قبل نشأة رهبانيتنا

فقدّسوهُ باعمالهم الحسنة وسيرتهم النسكية الفاضلة

فعسى هذا التأليف الصغير يروق الادباء ويحمل اخواني الرهبان يزيدون زهداً في الدنيا وثباتاً في محجّة الفضيلة ورسوخاً في كمالهم الرهباني ويكسب العالميّين نفعاً لنفوسهم اذ يرون في سيرة هؤلاء النساك الفضلاء ما يدفعهم الى ان ينشطوا الى اقام واجباتهم الدينية راغبين عن تعليقات العالم وملذّاته الدنية متخذين للسلوك في الطريق الضيّق المؤدي الى السعادة الابدية متنكبين عن الدخول في الباب الرحب الذي ليس لمن يلجهُ الّا العذاب الابدي الاليم

١ في اصل المحابس والحبساء في لبنان

ما من احدٍ ممّن لهم المام في تاريخ لبنان يجهل ان الحياة النسكية حياة الانفراد في الصوامع قد نشأت منذ القديم وقد درسها اجدادنا على اساتذة ماهرين تلقّنوا قواعدها ممّن نبغوا فيها واستقوها من الينبوع

ان أرسلنا رائد الطّرف الى اواسط الجيل الثالث نرى القديس بولا المعظم اول الساكنين والحبساء ناهجاً طريق الانفراد رشائداً معالم النسك ومعلماً ضروب الاماتة فقد هجر العالم واعتزل الناس وهو في السن الثانية عشرة وقضى في غارٍ نيّفاً وثمانين سنة متعرّياً عن كل غنًى متردّياً بثوبٍ من خوص النخل يقتات بما كان يأتيهِ بهِ احد الغربان كل يوم وهو نصف رغيف من الخبز

ولا شك في ان القديس انطونيوس الكبير ابا الرهبان وكوكب البرية الذي انشأ العيشة النسكية في الاديار المصرية قد اخذ عنهُ عند ما زاره في مغارته قبل غروب شمس حيوته طريقة الحبساء ولقّنها تلاميذه العديدين فارسوها حتى كنت ترى براري مصر مساكن للنسك ومجالس للحبساء

وقد افادنا علامتنا السمعاني في مقدمتهِ على كتاب قانوننا الرهباني ان القديسين ايلاريون الفلسطيني المولد وآبون (١ السرياني قد تتلمذا للقديس انطونيوس في مصر وعاد الاول الى فلسطين وطنهِ وانشأ الطريقة الملائكية فيها وقصد الثاني ما بين النهرين

١) هو القديس اوجين والسريان يلقبونه ابون كقول السمعاني عند كلامه عن هذا القديس

فكان اباً لرهبان السريان والكلدان . ولا بدَّ من ان يكون القديس مارون ابو طائفتنا المارونية لقربه من القديس ابون اخذ عنه طريقة النسك والانفراد فسارتقى الى قمة جبل قورش في اواخر الجيل الرابع يمارس ضروب الاماتة والتقشف او انه اختار هذه العيشة منقاداً بما سمعهُ عن القديس انطونيوس . وقد اثنى المعلم ثاودوريطوس عليهِ وعلى تلاميذهِ الكثيرين في مقدمة كتابهِ فيهم قائلًا : « كان يلذّ لي ان اطوف في براري قورش وأنعم عيناً بهذه الازهار العجيبة التي يزري عرفها بافخر الطيوب »

على ان القديس مارون على ما روى المعلم المذكور كان له ايضاً تلميذات حبست كل واحدة منهنَّ نفسها على قمة جبل معرّضة لحرّ الصيف وبرد الشتاء تحت جوّ السماء او في اكواخ حقيرة وصغيرة مثل مارانا وكورة ودومنينا

فلا عجب اذا كان مثل القديسين انطونيوس وابون ومارون وايلاريون حمل نصارى لبنان على التشبّه بهم

وقد افادنا حضرة العالم الاب لامنس اليسوعي في كتابهِ « تمريح الابصار » قائلًا :

« لا غرو انه بوشر منذ ذلك العهد اي بين الجيل الرابع والخامس بانشاء المحابس في لبنان بيد ان التاريخ لم يذكر من امرها شيئاً لقلة اعتبارها . وانما روى اخبار مناسك اخرى تدعى مَندره (Μάνδρα) وسماها حطيرة النمر وربما كانوا يدعون بعض هذه المناسك لورا (Λαύρα) او قنوبين (Κοινόβιον) وسماها المتندى . وقنوبين اشهر في لبنان »

وقال حضرتهُ ايضاً :

« ومن الاديار التي ترتقي الى اواخر القرن الرابع واوائل الخامس عدلون بين صيدا وصور فان فيها عند البحر صخرًا عالياً أُثر فيهِ نحو ٢٠٠ كهف »

ثمَّ قال :

« قد تطرَّ لبنان بفضائل بعض القديسين في اواسط القرن الخامس نخصّ منهم بالذكر القديسة مطرونا . ولدت في آسيا الصغرى ثمَّ ابتنت ديرًا في حمص وانتقلت اخيرًا الى بيروت . والقديس برلا السباطي قدم الى بيروت ثمَّ تعبَّد لله في جبال لبنان المتزلة . وفي سنة ٥١١ طرد الملك اناستاس من القسطنطينية عدداً غفيراً من الراهبات المستنيات الايمان فقصدنَ لبنان

فقال الله لتخرج الأرض نفوساً حيّة لأصنافها بهايم
ودبّيباً ووحش الأرض فكان كذلك فصنع الله
وحش الأرض لأصنافه والبهايم لأصنافها وكل
دبيب الأرض لأصنافه وعلم الله أن ذلك جيّد
وقال الله فلنصنع انساناً بصورتنا كشبهنا
يتسلّط على سمك البحر وطير السماء والبهايم
وجميع الأرض وسائر الدبيب الدابّ على الأرض
فخلق الله آدم بصورته الهيم خلقه
ذكراً وأنثى خلقهما وبارك فيهما الله وقال لهما
الله اثمروا واكثروا وعمّوا الأرض واملكوها
واستولوا على سمك البحر وطير السماء وسائر الحيوان

وفي التاريخ العزيز تاسع شهر تبيع الآخر من سنة
ثلث وخمسين وتسع مئة للهجرة ٩٥٣

مثال من النسخة المخطوطة القسطنطينية

Photo-Litho. Imp. Cathol. Beyrouth

واتخذتهُ لهنَّ مسكنًا وصيَّرتهُ يرف فضائلهنَّ . وفي اختيارهنَّ لبنان للنزلة دليل على ان اهله كانوا يرذلون الشيعة الاوطاخية »

على أننا وان لم يمكننا الغوص المستحوذ على تواريخ تلك القرون قرون الجهل من الاطلاع على اسماء الجباه واعمالهم ومواقع المجالس التي قطنوها فمع ذلك نقول ان وجود النساك والجباه في لبنان قبل القرن الثالث عشر امر ثابت من آثار الاديار والمحابس القديمة وأطلالها . ثم ان العلامة نُلدكه في المجلة الاسيوية الالمانية يعزو بعض فِقَر تاريخية كُتبت باللغة السريانية الى كاتب ماروني وذهب انه كان راهباً او ناسكاً لكثرة ما ورد في تلك المقاطيع من اسماء الاديار والمناسك . وقال العلّامة ريت (Wright) انها خُطَّت في القرن الثامن او التاسع مستدلًا على قدميتها بصورة كتابتها . وقد ذكر ذلك السيد يوسف الدبس في تاريخهِ الجامع المفصَّل (ص ١٧٦)

وقد عدَّد هذا العلّامة اديار الموارنة التي عرفها الى آخر القرن الثاني عشر قال :

« ان اول اديار الموارنة دير القديس مارون الذي بُني على العاصي . والثاني مار يوحنا مارون في كفرحي . والثالث دير السيدة العذراء في يانوح . والرابع دير السيدة في ميفوق . والخامس دير القديس الياس في لمند . والسادس دير السيدة في مايل . والسابع دير تزحيا . والثامن دير القديس يوحنا في كوزبند بقبرس . والتاسع دير كفتون (١ والعاشر دير قنوبين وهذا قديم جدًّا . والحادي عشر دير القديس سركيس في حردين . والثاني عشر دير القديس البشاع في بشراي الخ

وروى ايضاً في تاريخهِ المذكور انه وُجد في الكتاب السابع من الكتب السريانية المخطوطة التي نقلها السمعاني الى المكتبة الواتيكانية (في صفحة ٢٦٢ منه) هذه الحاشية بالسريانية وترجمتها :

انا الحقير الراهب سمعان (٢ كتبت هذه الاسطر في هذا الكتاب الذي نسخته لابينا الطوباوي بطريركنا مار بطرس بطريرك الموارنة الساكن في دير ميفوق المقدس في وادي ايليج من عمل البترون الى ان امرني ان اكون رئيساً وناظرًا على دير القديس يوحنا في ارض كوزبند بجزيرة قبرس في ايام الرهبان الساكنين في دير القديس يوحنا المذكور وهذه اسماؤهم : الراهب داود . القس موسى . الراهب يوسف النحوي . والراهب جيورجيوس . والراهب دانيال »

وكان ذلك في سنة ١١٢١ ولما توفي القس سمعان ارسل البطريرك يعقوب

١) انتقل فيما بعد الى الروم الارثوذكس غير اننا لم نهتدِ الى زمان انتقاله

٢) كان كاتب اسرار البطرك بطرس المذكور

الراماتي خلفاً لهُ القس دانيـال من رهبان دير كفتون في سنة ١١٤٠ . وقـد علَّق البطريرك يوحنا اللحفدي على كتاب الاناجيل قديم منبئاً انه حضرَ اليهِ سنـة ١١٥٤ الراهب اشعيا من دير قزحيا ورأسه على دير الكوزبند في قبرس

وذكر المطران اسطفان عواد ونقل كلامه المطران يوسف الدبس انهُ رأى معلقاً على كتاب الاناجيل بخط البطريرك ارميا العشيتي ما نصُّهُ :

« قد استراحت الراهبة سارة في اليوم الثـامن من آب سنة ١١٩٩ فتكن اهـلاً للذكر الصالح لانها تعبت كثيراً في دير القديس سركيس في حردين » (وقال) انهُ « كان عند المؤرخة قديماً ما عدا راهبات الاديرة راهبات حبيسات فهؤلاء بعد ان يمشنَ في الدير ثلاث سنوات يتطنَ في صومعةٍ قريبةٍ من الدير متحجبات عن معاشرة النـاس كما كانت تلميذات القديس مارون كورا ومارانا ودرمنينا »

فما ذكر ينتج حقيقة وجود اديار ومحابس في لبنان للرهبان والراهبات قبل القرن الثالث عشر . واما بعد هذا القرن فقد كثرت المحابس والحبساء كما يفيدنا البطريرك اسطفان الدويهي فقد ذكر انه في سنة ١٤٤٥ انتُخب يعقوب بن عيد الحدثي بطريركاً وكان منذ صغره قد تربَّى في السيرة الملكية في محبسة القـديس سركيس شرقي دير مار يوحنا المعروف بمار ابون (١) وكان لرئيس هذه المحبسة الرئاسة على جميع المحابس في جبة بشراي . وفي سنة ١٤٩٥ بنى القس بركات البقوفـاوي محبسة مار ميخائيـل بقرب دير قزحيا فانفرد فيها الى نهاية حياتهِ الطاهرة وخلفه القس موسى من اليمونة ثم القس يعقوب من بلاد البترون ثم القس يوحنا مخايل ثمَّ القس جبرايل ثمَّ الخوري مخايل وهؤلاء الاربعة من اهـدن . وفي تاريخ سنة ١٥٤٢ ذكر وفـاة الاب العابد الزاهد الخوري يونان المتريتي رئيس الحبساء . وقـد كتب عنه تلميذه الحبيس جبرايل الاهدني انه خدم ربَّه مدة خمسين سنة بطهارةٍ وعبادةٍ لا مثيل لهما وقبل ان يقضي اجله بمدة اربع سنين اخذ يزيد في تنسكه وتقشفه حتى انه في جمعة الآلام كان يركع اربعـة وعشرين الف ركعة الى الارض وفي سائر ايام الصوم كان يركع حتى يجري عرقُه . . ءواما من حيث الرحمة والحنو فلم يكن له مثيل يشبهه في عصره . ولمَّا اخذ تلميذه الحبيس جبرائيل في كتابة شيء من سيرتهِ صرَّح بعجزهِ عن ذلك قائلاً : «ها

(١) موقع هذين الديرين في ارض الحدث

اني انا الحقير ارمي القلم من يدي الخاطئة لئلا يقول القارئ كيف ان هذه الشجرة المثمرة اخرجت هذه الثمرة النتنة المُرّة. وشهد ايضاً تلميذه الخوري يوحنا اللحفدي انه لما فرغت خابية الزيت فبقوة الله وصلاة معلمه امتلأت وطفحت حتى اخذته الحيرة والدهشة واصبح لا يعلم اين هو. فالتفت اليه معلمه وقال: له مجّد ربنا يسوع المسيح وانظر الى عجائبه على يد اقل عبيده. ثمّ اوصاه ملحّاً عليه ان لا يخبر بذلك احداً قبل وفاته. ولما حضرته المنية ارسل الى البطريرك موسى والمطران قرياقس الاهدني يطلب منهما الحلة والبركة. فحضر اليه كلاهما. ثمّ اسلم الروح بيد الخالق فشاع خبرهُ واجتمعت الرؤساء والاخوة وتقاطر جميع اهل البلاد الى دير قزحيا ليتبركوا من جسمه الطاهر. وبعد ان طافوا به بالبكاء والدموع دفنوه في المحبسة. ويقال ان جسده لم يزل محفوظاً حتى الآن. وبعد مدة يسيرة من وفاته توفي ايضاً تلميذه الخوري يوحنا اللحفدي الذي كان قد شابهه في براءة السيرة وقداستها. خدم معلمهُ اربع عشرة سنة وهو يتقلب على اوجاع المرض. وفي اسبوع الآلام كان يركع ستة وعشرين الف ركعة. وشهد ان معلمه الحبيس يونان ظهر لهُ بعد موته مواجهةً في اليقظة فسلّاه ودعاه الى الحياة الدائمة.

وفي سنة ١٥٤٤ توفي الاسقف يوسف الجاجي رئيس الحبساء فخلفه الحبيس جبرائيل بن ستيته الاهدني رغماً عنه فاقتنى املاكاً كثيرة لدير قزحيا. ولما همّ بتوسيع الكنيسة واستصعب قطع الصخر تراءى له معلمه الحبيس يونان وامره ان ينشر الصخر من غير خشية وان يقيم ثلاثة مذابح على اسم السيدة واسم مار انطونيوس واسم مار مكاريوس فاطاع الحبيس واتمّ العمل في سنة ١٥٤٥. وكان قَيِّف العيش كثيراً محسناً لتدبير الاخوة. وكان يركع في الصوم الكبير الف ركعة كل يوم واما في اسبوع الآلام فلا يُعلم عدد ركعاته لانه لم يكن ينقطع عنها من الصباح الى المساء وكان لا يذوق الماء مطلقاً من بدء الصوم الكبير الى خميس الاسرار ومع كل هذه الاتعاب لم ينقطع عن نسخ الكتب البيعية حتى امتلأ جبل لبنان كتباً من خطه الجميل.

وقال الدويهي ايضاً: «في سنة ١٥٦٠ انتقل الى رحمة الله الحبيس ملكا البقرفاوي وكان قد مضى لهُ نحو ستين سنة في النسك والزهد. اعتزل اولاً في دير قزحيا ثمّ في

مار دوميط دارًيا . ثمَّ في كنيسة السيدة المقطوعة بالشقيف مقابل عرجس . ثمَّ في محبسة مار مخايل في دير قزحيا وكان قدوةً صالحة لكل من ينظر اليهِ لانه كان يقهر جسمه بالجوع والعطش والحفى والعري ولم يكن ينقطع عن ذكر الله ولم ينظر الى وجه امرأة . ولمَّا كانت محبسة مار مخايل معدومة الماء ولسبب سقمه لم يكن له قوة ليستقي من محبسة قزحيا سأل ربه ان يريحه من تلك المشقة فاخرج له الله من الصخرة ماء جارياً . ولموضع براراته ونسكهِ وفضيلتهِ شرَّفه البطرك بدرجة الاسقفية في هذه الحياة وجمَّله البارئ بتاج المجد في الحياة الدائمة

وفي سنة ١٥٦٧ يذكر الدويهي ان الحبيس مخايل الرزي انتُخب بطريركاً وقد كان اولًا رئيساً على دير قزحيا وعلى المحبسة لكنه رغبةً في العزلة ترك الرئاسة واقام بمحبسة القديس بيشاي القريبة من الدير . وفي سنة ١٥٨١ صار الحبيس سركيس اخو البطرك مخايل بطريركاً بعد موت اخيه . وفي تاريخ سنة ١٥٨٥ وقد بالرب القس يعقوب عصاص من بيت الزيات من سر جبيل فهذا قد لبس الاسكيم في دير قزحيا وقضى حياته بالنسك والقداسة في محبسة مار سمعان بالفراديس وجسده ما زال سالماً في مغارة مار ادنا هناك لم يعترهِ فساد

وفي سنة ١٥٩٦ خلف البطرك سركيس ابنُ اخيهِ الحبيس يوسف . وفي سنة ١٦٠٩ خلفه العالم يوحنا مخلوف الاهدني وكان قد تنسَّك مدةً في قزحيا

وفي سنة ١٦٣٢ قدم الى لبنان زاهداً في الدنيا الحبيس فرنسيس من بيت جلياق الذي دوَّنت مجلة المشرق سيرته في العام الماضي (٢٠ [١٩٢٢] : ٥٧١ ؛ ٦٤٩)

وفي سنة ١٦٦٨ قدم ايضاً من بلاد الافرنج اربعة رجال تجرَّدوا عن العالم وقصدوا خدمة الباري في محابس جبل لبنان : فمنهم من سكن في دير مار أسيا في كفرسادون . ومنهم في دير مار ابون في أرض الحدث . ومنهم في ديار مار انطونيوس بجوار قنوبين . وامر البطريرك جرجس السبعلي اناساً يصلحون تلك المواضع ويقطعون عنها الغابات ويأخذ ما يحتاج اليهِ هؤلاء لقوت اجسادهم من دير الكرسي في قنوبين . رواهُ الدويهي

فمن كل ما ذكرناه يمكننا ان نستنتج : (اولًا) ان السيرة النسكية قديمة في لبنان قد اعتنقها رهبان وخوارنة . (ثانياً) ان المحابس قدَّمت كثيرين الى الاسقفية

والبطركية. (ثالثاً) اننا وان لم نكن نعرف اسماء الحبساء ومواطن محابسهم قبل الجيل الثاني عشر للجهل المستحوذ على تلك العصور فمع ذلك نقول: انه من الجيل الرابع عشر وصاعداً قد كثرت الحبساء فشادوا محابس عديدة ولاسيما في جبّة بشراي فاضحت تلك الوديان المملوّة شوكاً واحراجاً فردوساً روحياً ممتلئاً من ازهار الفضائل وتكاثر القديسون فيها وفاحت رائحة قداستهم في الاقطار حتى بلغت الى اوربا فقصد بعض من كره العالم العيشة في مناسك لبنان ومحابسها لينسجوا على منوال حبساء القديسين

٢ في هيئة المحابس القديمة وكيفية معيشة الحبساء فيها ونوع كسوتهم

١ بعد ان تكلمنا عن قداسة المحابس والحبساء في لبنان يجدر بنا ان نصف هيئة المحابس ونبين كيفية معيشة اولئك الحبساء ونوع كسوتهم وفي ذلك ما فيه مما تهمّ القراء معرفته ويوقفهم على بعض حقائق تاريخية ربما كانت محجوبة عن اذهانهم فتقرّ بها اعينهم وترتاح لها نفسهم فنقول: ما كان الحبساء في ذلك العهد البعيد إلّا ليؤثروا الاماكن الوعرة البعيدة عن الناس والصبة المسالك طلباً لسكون البال ورغبةً في الابتعاد التام عن العالم وضوضائه فمنهم من كان يسكن الكهوف المنقورة في قلب الصخر تحصّناً بها وامتناعاً حتى انّ من ينظر اليها وقد استوت استواء عومياً كانها اوكارُ النسور المنيفة يقف متهيباً خاشعاً. ومنهم من آثر السكنى في سفوح الجبال او في منعطفات الاودية فيصبحون ولا شيء يشغلهم عن تمجيد الله والاتحاد به بصلواتهم وتأملاتهم فيرسلون ابصارات الشكر له تعالى مع خرير الماء الذي ينساب في الوديان وتغريد الطيور في افنان الاشجار النابتة على ضفاف الانهار

على ان بعض هذه المحابس يعزّ على المرء تسلّقها والوصول اليها. وقد حاولتُ مرة ان ارتقي الى محبسة مار دوميط الكائنة في وطأموب قرب تنورين ولم اتمكن من الوصول اليها الّا بعد شق النفس لاصقاً بالصخر متمسكاً بيدي ورجلي متحفظاً تمام التحفظ لئلا تزلّ بي القدم فاهوي من ذلك العلو الشاهق الذي يربو على الخمسين متراً عن سطح الارض. وكثيراً ما كنت اتعجب مسائلاً نفسي كيف كان يصعد الحبساء الى هذه المحبسة ونظائرها كالمحبسة التي فوق دير القديس اليشاع في وادي

قاديشا ومحبسة مار يعقوب في تنورين السفلى وينزلون منها لاجل اقامة فروضهم الدينية (١ في الدير القريب منها وقضاء حاجاتهم الجسدية كاستقاء الماء وتناول الطعام او اعداد المؤنة

وليس لهذه المحابس المنقورة في الصخور هيئة الا هيئة الكهف الذي تألفت منه . فمنها ما يمتدّ من الشرق الى الغرب كالمحابس التي في وادي قاديشا ووادي قزحيا ووادي تنورين ومنها ما يمتد من الشمال الى الجنوب كمحبسة حوقا والفراديس . اما المحابس التي بُنيت في غير الصخور فالغالب في هيئتها التربيع ووجهة مذابحها الى الشرق

ومن هذه المحابس التي بالكهوف ما بُني بالحجر المدّان ومنها باللبن . واما التي بُنيت على سطح الارض فبناؤها من الحجر اليابس

ومنها ما تألفت من غرفة واحدة كمحبسة مار دوميط المذكورة اعلاه ومنها من اكثر من غرفة كمحبسة قزحيا ومحبسة مار يعقوب في تنورين السفلى ومار بيشاي والفرزل (٢ وغيرها . ومنها ما درست رسومها وعفت آثارها ومنها ما بقيت انقاضها كمحبسة في جبل مغارة سعيد في خارج تنورين لا يزال اسم تلك المحلة «الحبيس»

ومنها ما لم يبقِ منها الدهر غير اطلال الى الآن . ومن هذه المحابس ما كان يسكنها حبيس واحد ومنها حبيسان ام اكثر

اما معيشة هؤلاء الحبساء فكانت من تعب ايديهم . فكانوا بعد التفرُّغ من صلواتهم ورياضاتهم الروحية يعنون بحراثة بقعة من الارض او بنسخ الكتب او بعمل آخر لائق بهم وذي نفع لهم وللمحبسة وكان احدهم يصوم اليوم واليومين والثلاثة ويأكل المآكل الخشنة كالحبوب والبقول الا انه لم يكن ليذوق اللحم حياته كلها . ويقهر جسده بانواع الاماتات والركعات العديدة وضبط الهوى اذ لم يكن لهم قانون يتقيدون به بل كل واحد منهم كان يسنّ لنفسه قانوناً يمشي عليه بما يكون قد رآه مناسباً لحالته او يكون اطّلع عليه في سير الآباء النسّاك

---

١) ان محبسة مار دوميط ليس فيها لا مذبح ولا معبد بالقرب منها

٢) وقد وصف الاب اليسوعي اسكندر بوركنز محابس فرزل في مجلة الابحاث (Etudes) سنة ١٨٦٦ (ج ٨ ص ٦٦-٧٠)

واما كسوتهم فكانت بالاجمال قتمة اللون فاسكيمهم كان من نسيج الصوف اسود على شكل اسكيم الرهبان العباد المقيمين الآن في مار دومط البوار والعباءة من الخام الازرق والاسود والمشلح من نسيج الصوف البلدي الاسود والمنطقة والحذاء من جلد

٢ً فهل كان لهؤلاء الحبساء جامعة تجمعهم بحيث كانوا يرجعون الى دير واحد ويطيعون رئيساً واحداً ؟

قد افادنا حضرة الفاضل الاب لويس بليبل صاحب تاريخ رهبانيتنا ناقلاً كلامه عن مؤسس الرهبانية الطيب الاثر المطران عبدالله قراعلي بما محصّله : ان الرهبان الموارنة قبل انشاء الرهبانية اللبنانية لم تكن تربطهم وحدة قانون ولا كانوا ينضوون تحت سلطة رئيس عام واحد ولا كانت لهم عيشة واحدة مشتركة في الاديار بل كان كل دير من اديارهم قائماً بذاته لا يشترك رهبان دير مع رهبان دير آخر بشيء ولا علاقة لدير بدير آخر ايّة كانت

بل كان يخضع كل الاديار والرهبان والحبساء لولاية الاسقف المكاني الذي له عليهم السلطة الروحية المطلقة بحسب ما جاء في المجمع اللبناني (وجه ٤٦١ ع ٢)

ولذلك لمّا كان احد الشبان يقصد الترهب في دير يُلبسه الاسقف الثوب الرهباني بعد مكثه مدة وجيزة في الدير وقبوله سرّي التوبة والقربان الاقدس من دون ان يبرز نذرًا على الصورة التي ننذرها نحن الرهبان بل كان يتقيد عملًا بالنذور من غير ابرازها . ولم يكن لهؤلاء الرهبان قانون خاص يجرون عليه بل كان جل اعتمادهم على كتاب يوحنا السلّمي وبستان الرهبان ووصايا ابينا القديس انطونيوس فيطبّقون سيرتهم عليها ويستقرّ كل منهم في الدير الذي لبس فيه الثوب الرهباني بحيث لا يتأتى له ان يخرج منتقلًا من دير الى آخر الّا برضى المتقدم في الديرين

ومتى شاء احدهم ان يصير حبيساً ينفرد في صومعة قريبة من الدير ولا ينتقل من محبسة الى اخرى بسلا اذن الاسقف (١ . واذا كان الحبيس كاهناً فيقيم القداس والفروض الالهية في معبد المحبسة . وامّا اذا كان اخاً فيتحتم عليه مطلقاً ان يأتي الدير لحضور القداس واقامة الصلوات الفرضية ومناولة الاسرار ولذلك لا نرى في بعض

١) عن المجمع اللبناني

المحابس (١ غير غرفة واحدة لا مذبح فيهـا ولا معبد وللحبيس ان يتخـذ طريقة الحبساء موقتة او مؤبدة

فينتج مما تقدم ان الحبساء الاقدمين لم يكن لهم جامعة تجمعهم ولا كانوا يرجعون الى دير واحـد ولا يطيعون رئيساً واحداً بل كانت كل محبسة منفصلة عن غيرهـا بالعيشة والقانون والحبيس الذي كان يقطنها يخضع رأساً لـلاسقف المكاني ويعيش عيشة خاصة به ويسنّ لنفسه قانوناً خصوصياً يتمشى عليه ما بقي في محبسته

اما قول علامتنا الدويهي ان رئيس محبسة القديس سركيس في ارض الحـدث كانت لهُ الرئاسة على جميع المحابس في جبة بشراي فيمكن حمله على كون تلـك الرئاسة ليست برئاسة شرعية بل إكرامية امّا نظراً لقدم محبسته واما الى تفوّق قاطنها بالقداسة والفضل لان الحبساء - كما يقول المطران قراعلي لم يكن لاحد منهم سلطان على الآخر ولا كان للمتقدم فيهم لقب رئيس ولم يكن لمحبسة علاقة بمحبسة اخرى في تلك الايام بل كان المتقدم في الدير او في المحبسة يُدعى باسمه الخاص ولا يعطونه لقب رئيس . ولو كان للمتقدم في هذه المحبسة المذكورة الرئاسة على المحـابس الاخرى في جبة بشراي لَما كان الـدويهي نفسه يقول عن الخوري يونان المتريتي (٢ انه رئيس الحبساء وقد كان قاطناً في قزحيا وليس في محبسة القـديس سركيس التي اتضح ان رئاستها لم تكن لها صفة قانونية على سائر المحابس . والاسقف يوسف الجاجي قـد دعاه الدويهي ايضاً رئيس الحبساء وهو لم يقطن في محبسة القـديس سركيس بل في قزحيا . وربما دُعي الحبيس يونان رئيساً لكبر سنه وفضيلته والمطران يوسف لكونه اسقفاً او لكون دير قزحيا تفرّعت عنه محبسة مار ميخائيل ومحبسة مار بيشاي وكان سكانها يخرجون منـه فيبقى رجعهم اليه . الّا ان الارجح عنـدي هو ان الدويهي اطلق على هؤلاء لقب رئيس لتقـدمهم في المحابس ولو لم يكن يُعطى هذا اللقب لمن عاشوا في العصور التي سبقت الدويهي

---

١) كمحبسة مار دومط في وطا حوب

٢) من المرجح انهم دعوا بالحبيس من كان قد ترهب في احد الاديار ودعوا بالخوري الحبيس الراهب الكاهن الذي بعد ان صار حبيساً رقاه السيد البطريرك الى مرتبة خوري اسقفي